تركيا - ٢

للأستاذ أبو الفتوح عطيفة

« حققوا للشعوب حرياتها فان القلوب الأحرار خير حصن ضد الطغيان والاستبداد والاستعمار » غلادستون

موطن نزال

تشغل تركيا مكانا يمتاز بأهمية موقعه الدولى.. فهى تضع قدما فى آسيا وتضع قدمها الأخرى فى أوربا وتتحكم فى الملاحة بين البحرين الأبيض والأسود

وقد كانت أرضها ميدان النزال بين الفرس واليونان فى التاريخ القديم ، وموطن الصراع بين المسلمين والروم فى العصور الوسطى، وكانت طريق الصليبيين إلى الشرق أثناء الحروب الصليبية، وهى الحروب التى شنها الغرب على الشرق وانتهت بانتصار الشرق وخذلان الغرب

وفى العصور الحديثة كانت تركيا وما تزال ميدان صراع دولى عرف فى التاريخ باسم المسألة الشرقية

المسألة الشرقية

فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى نزل الأتراك العثمانيون فى آسيا الصغرى وأسسوا دولتهم التى بدأت صغيرة ثم أخذت تنمو وتتسع حتى شملت آسيا الصغرى، ثم عبروا البحر إلى أوربا ونزلوا بشبه جزيرة البلقان واستولوا على القسطنطينية عام ١٤٥٣ واتخذوها عاصمة لدولتهم الكبيرة

واستمر الأتراك فى فتوحاتهم ففتحوا بلاد الشام والعراق وفلسطين وبلاد العرب ومصر وشمال أفريقيا ؛ وفى أوربا استمر جندهم فى فتحهم حتى قرعوا أبواب مدينة فينا عاصمة الإمبراطورية النمسوية

فى ذلك الوقت لم تكن هناك مسألة شرقية وإنما كان يوجد ما يمكن أن يسمى بالمسألة الغربية . ما هو مصير غرب أوربا أمام الزحف التركى وما الذى سيؤول إليه أمر غرب أوربا فى حالة استمرار انتصار الأتراك ؟ ؟

لكن الأتراك ردوا عن فينا ثم مالبثوا أن استقروا فى البلاد الشاسعة التى فتحوها وأصابهم الترف ونزل بهم الوهن وتجلى ضعفهم شديدا شنيعا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين وظهرت المسألة الشرقية واتخذت مكانا بارزا فى التاريخ الحديث

وكانت روسيا أكبر عدو لتركيا : ذلك أن روسيا نهضت على يد بطرس الأكبر وبدأت تحتل مكانا بارزا فى التاريخ منذ أوائل القرن الثامن عشر . وكانت روسيا تريد الوصول إلى البحرين الأسود والأبيض وكان هذا لا يتأتى إلا على حساب تركيا ، ومن أجل هذا قامت الحروب بين الدولتين ووضعت روسيا يدها على شواطئ البحر الأسود الشمالية والشرقية

لكن روسيا كانت ترنو دائما إلى الوصول إلى القسطنطينية وهذا هو محور سياستها، ويتجلى لنا واضحا جليا فى جميع حوادث التاريخ منذ القرن الثامن عشر حتى اليوم

وقد ساعد روسيا على تنفيذ سياستها أن تركيا لم تعمل على إدماج رعايا البلقان فى رعاياها ؛ بل تركت لهم حريتهم الدينية وحكومتهم الذاتية ولغتهم القومية واكتفت منهم بما قدموا لها من جزية وضرائب

واستغلت روسيا الروابط الدينية والجنسية التى تربطها بسكان البلقان، وعملت دائما على خلق المتاعب فى وجه السلطان، وسارعت إلى نصرة الثائرين بقواتها وأملت على تركيا شروط الصلح لفائدتها

وكانت النمسا العدوة الثانية لتركيا، فقد اقتطع الأتراك جانبا كبيرا من أملاكها فى البلقان وفى الدانوب ، ولما ضعفت تركيا عملت النمسا على استرداد ممتلكاتها ونجحت فى ذلك إلى حد كبير فى القرن الثامن عشر

أما فرنسا — وكانت عدوة للنمسا — فقد أقامت علاقات ودية مع تركيا منذ القرن السادس عشر

ولكن إنجلترا فى القرن الثامن عشر كانت تجد فى روسيا حليفا طبيعيا ؛ فقد كانت روسيا سوقا هامة للتجارة الإنجليزية ؛ وكانت إنجلترا ترى أنها بحاجة إلى صديق وحليف ليعاونها ضد عدوتها التقليدية إذ ذاك وهى فرنسا

لكن حملة نابليون على مصر نبهت إنجلترا إلى الخطر المحدق

بها من جراء مطامع روسيا، فقد كانت روسيا تطمع فى الاستيلاء على القسطنطينيـة والوصول إلى البحر الأبيض وكان ذلك خطرا يهدد مصالح إنجلترا فى الشرق . ثم إن الروسيا كانت تستطيع الوصول برا إلى الهند

وهكذا وجدت إنجلترا فى مطامع روسيا خطرا عليها ومن ثم وقفت بجانب تركيا وأخذت تعمل على المحافظة عليها ولكنها لم تر بأسا من اقتطاع كثير من أملاكها فى الوقت المناسب

ويتجلى اهتمام إنجلترا بمصير تركيا فى وقوفها بجانبهـا هى وفرنسا أثنـاء حرب القرم ١٨٥٣ — ١٨٥٦ وهى الحرب التى شنتها روسيا على تركيا وانتهت بانتصار إنجلترا وفرنسا وتركيا عليها وكان سببها مطامع روسيا فى تركيا

فى ١٨٤٤ زار قيصر روسيا لندرا الأول إنجلترا وتحدث مع لورد أبردين وزير خارجيتها حديثا عبر به عن سياسة روسيا إزاء تركيا : «إن تركيا رجل مريض يحتضر ويخشى أن يموت فجأة . وحينئذ يحدث خلاف بين الدول حول تقسيم تركيا ولذلك فمن الأجدر أن تتخذ الدولتان إنجلترا وروسيا الأهبة لمواجهة الموقف وخير لهما أن يتفقا على تقسيم لإملاك تركيا » وقد كرر القيصر حديثه هذا مرة أخرى مع سفير بريطانيا فى روسيا ١٨٥٣ وكان ذلك من أهم الأسباب التى دعت إنجلترا إلى الدخول فى حرب القرم ضد روسيا ، فقد كان بلمرستون رئيس وزراء إنجلترا يؤمن بأن مايقال كل يوم من أن تركيا رجل مريض يحتضر كلام فارغ لا يؤبه له ؛ وأنها لو أعطيت وقتا كافيا بدون قلاقل أو متاعب لاستطاعت أن تصلح من شأنها وأن تستعيد مجدها كدولة قوية لها وزنها فى السياسة الدولية

وفى معاهدة باريس ١٨٥٦ أعطيت تركيا الفرصة اللائحـة وحرم على روسيا أن تنشئ قواعد حربية على شواطئ البحر الأسود إذ أن يكون لها فيه أسطول حربى وأعلن حياد البحر الأسـود

لكن تركيا لم تقم بالإصلاح المطلوب ولم تنزل شعـوب البلقان عن مطالبها القومية فقد كانت تريد الاستقلال عن تركيا . وكانت الدول تخشى أنه فى حالة استقلال هذه الدول : رومانيـا والصرب والجبل الأسود وبلغاريا.. أن تقع فى يد روسيا

ولكن غلادستون زعيم الأحرار فى إنجلترا صرح قائلا :

« حققوا للشعوب حرياتها فإن قلوب الأحرار خير حصن ضد الطغيان والاستبداد والاستعمار »

وفى ١٨٧٦ ثارت شعوب البلقان ضد تركيا وتقدمت روسيا لمساعدتها وهزمت تركيا ووقف الجند الروس أمام القسطنطينية.. وهنا تقدمت إنجلترا وأمرت أسطولها بدخول مياه البسفور ومقاومة الروس إذا دخلوا القسطنطينية، وأمام تهديد إنجلترا وقفت روسيا ووقعت مع السلطان معاهدة سان ستفانو ١٨٧٨ . لكن إنجلترا لم توافق عليها ودعت الدول إلى عقد مؤتمر دولى لبحث المشكلة ؛ وقد اجتمع المؤتمر فى برلين فى يوليو ١٨٧٨ ووقعت الدول معاهدة برلين وبها تحقق استقلال رومانيا والجبل الأسود والصرب وأعطيت بلغاريا حكومة ذاتية وأخذت روسيا قارص وباطوم واستولت إنجلترا على جزيرة قبرص وبعدها بسنوات احتلت مصر . وتحقق لإنجلترا ما تبغيه من إبعاد روسيا عن القسطنطينية

وتتجلى أهمية القسطنطينية فى نظر روسيا فى الحديث الذى دار بين القيصر إسكندر الأول ونابليون الأكبر إمبراطور فرنسا، وكان نابليون يطمع فى صداقة القيصر ليتمكن من هزيمة عدوته اللدودة إنجلترا

قال القيصر « القسطنطينية هى مفتاح بيتى ويجب أن يكون فى حوزتى »

فرد نابليون « القسطنطينية ! من المستحيل.. إن هذا معناه تكوين إمبراطورية عالمية »

وهكـذا لم يستطع القيصر والإمبراطور الاتفاق بشـأن القسطنطينية، وكان ذلك من أهم أسباب اختلافهما وانضمام روسيا إلى إنجلترا ضد نابليون مما كان له أكبر الأثر فى القضـاء على نابليون . وهكذا نرى أن المسألة الشرقية كانت عاملا كبيرا فى سقوط نابليون وفى تحويل مجرى التاريخ

وفى ١٩٣٩ عقدت روسيا مع هتلر ميثاق عدم اعتداء مما كان له أكبر الأثر فى نشوب الحرب العالمية الثانيـة ، وفى اعتقادى أنه لولا هذا الميثاق لما نشبت الحرب

اطمأن هتلر إلى روسيا وقام يحارب ، وأحرز جنده النصر